

فيه ، ولكننا هي الدعة ، مللتها واجتويتها : إني أشكو ألم الراحة ، فأعطوني به راحة الألم ، ذلك الألم المبقرى الذى يفتح القلوب بآيات الشعر ، فاني منذ فقدته لم أعد أحس بأننى ذو قلب !

على الرستمية ... ألا تزال الرستمية جنة من جنان الأرض ، حافلة بالماشقين وبالخورد العين ، أم طاف بها طائف من هذه الحرب فجفت خائلها وهجرها فاصدوها ؟ على الصالحية ... بروحى صالحية دمشق وصالحية بغداد . على (قهوة الطار) ، على ظباها على جاذرها ألف سلام .

على الجسر ... يا جسر بغداد ، كم جمعت وفرفت ، ماذا رأيت وسمعت ، كم وصلت بين قلوب وقطعت ، أنت الصلة بين ماض لنا كان أعز من النجم وأسمى ، وآت لنا سيكون أسمى من النجم وأعز . يا جسر بغداد ، يا مرصع الحب والأدب والمجد ، يا من كنت سرّة الأرض ، وكنت لى سرّة القلب ، عليك منى ألف سلام . يا ربوعاً تركت فيها قطعاً من حياتى ، وخلفت فيها بقايا من فؤادى ، ماذا صنعت بفؤادى وحياتى يا ربوع ؟ !

ويادارنا فى (الأعظمية) من حلّ فيك بعدنا يا دار ؟ وهل صوّح لبعدنا زهرك أم ضحكت من بعدنا الأزهار ؟ وهل حفظت آثارنا أم لقد طمست من بعدنا الآثار ؟ لقد كنت أنت مستقرى ومتواى ، وكان إليك مفرّتى من دنياى ؛ وكنت شاهدة أفراسى كلها وأتراسى ، وكنت مستودع أسرارى وأخبارى ، كتمتها عن الناس إلا عنك ، فهل كتمت سرّى هذه الجدران ؟ هل سترت ما رأت من نقائصى التى أخفيتّها عن الأصدقاء والإخوان ؟ ما هذه الدنيا يا ناس ؟ هذه الدار التى كنت أفرّ إليها من ربح الحياة ، وزحمة المجتمع ، فأغلق بابها على ، وأخلو فيها إلى نفسى ، فأخسّ أنها جزء منى ، وأنها لى وحدى ، صارت غريبة عنى ، تفكرنى وتجهلنى كأنى لست منها وليست منى وصارت لغبرى ، فإذا ما جئت أطرق بابها ، رددت عنها ، أو قبلت فيها ضيفاً غريباً لا أرى إلا ما يراه الضيف ، ولا ألبث إلا ما يلبث ... لا يا سكانها ؛ ما أنا بالضيف القريب ، إنها كانت دارى ، إن لى فيها حقاً ، لى فيها ذكريات ؛ فيها من حياتى ، من أنفاسى ، من دوحى !

من ذكريات بغداد

للأستاذ على الطنطاوى

—>>><<<—

ما الذى هاج فى نفسى هذه العشية ذكر بغداد ، وشهر أمامى ما انطوى من ذكرياتها وما مات من أيامها ؟ ما الذى رجمنى لى تلك الليالى حتى كأنى - لفرط ما تشوقت إليها ، وأوغلت ، إذا كارها - أعيش فيها ؟ أى سحر فيك يا بغداد جذب قلبى بك ، فلم أنسك إذ أنا فى بلدى الحبيب . ولم أزل أحن بك واشتاقك ؟

بغداد ... يا بغداد ، عليك منى سلام الود والحب والوفاء ، العظم على الصليح على الكرامة على الكرخ سلام الفؤاد شوق الوهّان ، على ليالينا « بين الرصافة والجسر » . ما كان أحلى لك الليالى ! لقد كنت أشكو فيها ألم الغربة وأحن إلى الوطن ، سرت فى وطنى أحن إلى تلك الغربة وليالها ، وما ظلمنى موطنى ما أنكرنى ، وما كنت لأذمه صادقاً فكيف أذمه بما ليس

بناهم ، ذلك لأن أسس الفكرة العربية وفلسفتها ستأخذ مجرى يد كبير من المفكرين والباحثين ، ولكن أثرها سيكون عميقاً ، مصر ، إذ ستعيد حباً للشعب المصرى إرادته وشخصيته وتلقنه ربحه الحى . وسرى كيف أن الكثير من مشاكلنا الخلقية لقومية والتى تبدو لنا مستعصية الحل ، سيسهل علينا مواجهتها ضوء الأسس الاجتماعية التى تخاطب الوجدان والفكر ، بحرك القلوب والمشار .

إن الفلسفة التى تثير طريق الفرد منا إلى غايته ، وتحمل إيماننا بفكرة العربية وحركتها السياسية وأهدافها إيماناً بصيراً مستنبطاً تقود الشعوب العربية من الظلمات إلى النور ، ومن الجلود إلى لركه ، ومن الاستكانة إلى الرفعة ، وتعلم الفرد والجماعات معنى قية الكريمة : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » . ولئلا نأقلمع الباملون !

أحمد رمزي

التصل العام السابق بهوريا ولبنان

فنظرت إليها فتمطت أهلها إذ يملقون أبوابهم على الشمل الجميع ،
والأهل المحصور ، والأنس والسعادة .

وزلت في طريق الحديقة العتيقة ، وإذا أنا أنتمر بحجر ،
فنظرت إليه على شماع يتحدر إليه من مصباح الشارع ، فإذا
هو قبر متخلف من القبرة التي كانت هناك في غابر الأزمان ،
فامتلات نفسي بسورة الموت ، ولم أعد ألس في هذه القصور
المخضرة إلا الربيع الماضي الذي مات ، ولا أرى من الناس إلا
قلوباً ميتة دفنت في سدور أصحابها ؛ ولا أجد تراب الأرض إلا
ناساً كانوا مثلنا وماتوا ... فأكلت هذه الأشجار أجسامهم ،
وشربت دماءهم ، فنه كان زهرها الذي نشم عطره ، وغصنها
الذي نأكل ثمره ... ولم أر الدنيا إلا موتاً في موت .

وأمتت غرفتي وأنا غارق في بحر من الأفكار السود ، فسمعت
العشاء ين في صفاء الليل قوياً عذباً يومض ضياؤه في طيات
الظلام ، إذ يحمل اسم الله منيراً مشرقاً ، فقممت إلى الصلاة ،
فلما قضيت وخرج الناس ، رأيت المؤذن ينادي على عادته بذلك
الصوت الممدود : الناقحة ! ثم يفلن المسجد وينصرف ، وأبقى
وحدي ، ليس في المسجد ولا في المدرسة غيري ، وبينهما باب
من داخل ، فأعود إلى غرفتي ...

وما كاد يكتمل الليل ، حتى سمعت الصوت في المسجد كره
أخرى ، ولكنه خرج هذه المرة ضعيفاً وانياً ، في نغم حزين ،
من لحن الصبا ، فنظرت من شباك ، فإذا في أرض المسجد الذي
اشتمل عليه الظلام ثلاثة مصابيح بترولية خافتة النور ، تكشف
عن نفر من الناس ، لا يبدو منهم إلا أرجلهم وظلال لهم ممتدة
فكانهم الجن ، أو كأنه فلم مخيف من أفلام ألف ليلة ... ثم
سمعت تكبيرات الجنائز ، فنزلت فرايتهم يصلون على ميت في نكس ،
فسألت : من هذا ؟ قالوا : مؤذن المسجد !

فانصرفت لأدوتن في دفتري ماعرض لي ذلك اليوم من صور
وخواطر ، ثم أضمت الدفتر ونسيت الخواطر والصور ... وأن
في الدنيا موتاً ...

كذلك أمضيت يوم العيد في دار العلوم ، وإن على هذا
اشتاقها واشتغى أن ترجع لي أبيي التي مرت فيها . فيارحة الله
على أبيي في دار العلوم وعلى من بقى من أهلها السلام !

ودار العلوم ؟ خبروني سألتكم بحق الاخاء عن ظلال أبيي
فيها . متى الله فلالها سوب القلوب ! خبروني ، الأرجل كريم ،
يحسن إلى هذا البعيد النائي ، فيمر بالدار عند مسجد الإمام
الأعظم أبي حنيفة النعمان ، فيصعد إلى الغرفة التي تطل من هنا
على حن المسجد النور المبارك ، ومن هناك على حن المدرسة
الزهر المشرق ، فيجني عن هذه الغرفة ، فاني سكنتها عاماً ، كان
لي عام دنيا ودين ، وفيها جددت طباعى وأفكارى وكونت نفسى .

ثم ليحل عني في هذه المدرسة في حداثتها ، في صحنها ، في
ممراتها ودهاليزها ، ثم ليعمد سطوحها الواسعة التي تمتد حتى
تتصل بقبة المسجد ، وتشرف على تلك الحديقة العتيقة ، وتلك
القبرة المهجورة ، وعلى طريق الكاظمية ، فإن لي على هذا
السطح ذكريات ... وإنني إن أنس لا أنسى يوم العيد ، وقد
خلت المدرسة من ساكنيها ، فلم يبق فيها غيري ، فأوغلت في
هذه السطوح ، وصعدت حتى انتهيت إلى أصل القبة ، ونظرت
فإذا أنا على بحر من النخيل : تهرق قمع من تحتى كأنها الأمواج
في اللجة الساكنة ، وتظهر في قراج النخيل طرق الفلاحين ،
وقد خرجوا مع أطفالهم وأولادهم بشباب لها مثل لون الزهر ، ثم
تخفى خلال الأشجار ، كشاعر سادر أو محب منزول ، ذهب
يناجي ذكريات الوصال ، ودجلة عند منطف الصليخ تلوح
بمظمتها وجلالها ، كأنها سماء من نور ركبت في الأرض ؛
وبقداد ، بلد الأساطير والأحلام ؛ يبدو طيفها على حاشية الأفق
البعيد بقبابها ومآذنها ، كأنه (هو أيضاً) أسطورة ساحرة ،
يقصها الأفق المشرق على الدنيا ، وإلى البين قباب الذهب من
الكاظمية ، والقبة الخضراء التي توى تحتها دمس ملك شاب ،
وشباب مليك ، حين توى غازى بن فيصل بن الحسين بن علي !

لقد لبثت مكانى حتى شملت الظلمة الكون ، وضوأت المصاييح
في شبايبك النازل فنظرت ... إليها ، أنا الغريب المنفرد ، الذي
يمضى عيده وحيداً على سطح المسجد ، لا رفيق له إلا ذكريات
سادة وتؤله وتحز في قلبه ذكراها ، وحب مات وليد ،
وفكرت في أمسى لو أصابني مرض فلبثت هنا شهراً ، فن ذا
يصل إلى ؟ من يسأل عني ؟ وأى فؤاد يخفق من أجل بمد أن
سكت ذلك الفؤاد الذي كان خفاقاً بحبي ، فؤاد أبى ، إلى الأبد ؟

فضحك وأرخى سنان بندقيته ، وقال : معلون صحيح ،
أما غير مخبلين ، (وغير هنا للتأكيد ومخبلين ، أى مجانين) !
وتركنا نمضى لأن المجنون لا يسأل ...

تلك هى ليلة البلاط ، وإني لا أذكرها إلا أسفت على هذه
الليلة الخلو التى فانتنى ، وخشيت ألا أتمكن من مثلها ، وأظن
أنور آسفاً مثلي ، إلا إذا استطاب حياته بعد الزواج وتعلم البنات
الأدب ... أما حياتي أنا فليس فيها لذة تستطاب ، وليس فيها
ألم يستكره . أعني أنني لست إنساناً يحيا ولكن (شيئاً) يعيش !

مالى كل هذه الليلة ذهني ، ولم يسمفنى شيطانى ؟ مالى
أكتب عن بندگان ، فلا أذكر من أيامها إلا هذا الحديث النافه ،
وأيام بندگان ، مواسم للمجد وأعياد ، ولياليها فرحة القواد ، وأسرة
للحب ومهاد ، وماضيها مآثر ومفاخر وأمجاد ؟

مالى لا أحدث عن دجلة ، وباطول شوق إليها ، وإلى زوارق
المحبين وهى تمضى فيها حاملة سكرى ، والأغاني تراقص على
أمواجها ضاحكة مرحة ، والسماك السقوف . خبرونى ، ألا تزال
مرفوعة سقوفه . مشتلة ناره ، أم هوت من هول الحرب الدعائم
وانطفأت النار ؟

مالى لا أناجى إخواني وتلاميذي الذين عشت دهرأ من عمرى
بهم ولهم . وأسألهم أيزكرون هذا العلم ... أم قد صرنا فى حياتهم
مرور شخص (السينما) ثم تنقضى الرواية ، ويسدل الستار ،
فكأنما لا شخص مر بهم ، ولا (فيلم) عرض عليهم ؟

أما أنا فانهدوا يا تلاميذي وإخواني أنى ما نيتكم .
ألنسى نجدة وعليك وزار بن البطل الشهيد ، إلا إذا نسي الأب
أولاده ؟ ألنسى الأخ الأكبر (بهجة) العراق ، وقد طالما قبست
الجزل من فضله ، ورأيت الفد من نبلة ؟ ما نسي ، ولئن كبا بي
القلم الليلة ، فسأعود إلى الحديث عن بندگان ، وما كل مرة
يكبو الجواد .

وعلى إخواني وتلاميذي وبندگان وأهلها سلام الله ورحمته وبركاته .

علي الطنطاوى

المدرس (سابقاً) فى ثانويات بندگان والبحرة وكر كوك

وإن أنس لا أنس (ليلة البلاط) ، ياليت ليلة البلاط تعود !
لقد رجعت أنا وأنور المشية من الأعظمية إلى بندگان ،
فتركنا السيارات وجفونا الطريق الأعظم ، وسلكنا محجة على
سيف دجلة فسرنا فيها ، وكانت تنكشف لنا تارة فنسلكها ،
وتضل (طريقها ...) تارات ، فتتبع بين النخيل ، وكان النهر
أبداً عن أعيننا ، يبدو حيناً بصفحته البيضاء المشرقة التى تشبه
وعد الوصال ، يشرق للمحب فى ليل المهجران ، والأمل البسام
يلوح لليائس فى غمرة القنوط ، ثم يحجبه عنا النخيل ويستره
الظلام ، كما يخلف المحبوب بدلاله الوعد ، وتمحو الحياة بواقعهما
الأحلام ، ونطمس صور الأمانى . وكان أنور يحدثنى حديث ماضيه
فيشير فى نفسى عالم من الذكر الألفية ، كلما نزلت به فى أعماق
قلبي ، ودفتته فى هوة النسيان ، وحسبته مات . انبثت فجأة ،
كأنما ولد الساعة ، عالم فيه صور أبى وأمى وآمالى وحبي ، واستغرقنا
فى خواطرنا ، وغبنا عن حاضرنا ، فما نهنا إلا جندى بحربته
السددة إلى بطوننا وبندقية الموجهة إلينا ، وصاح بنا : أن ارفما
أيديكما ؛ ففعلنا .

قال : ما أدخلكما حى (بلاط الملك) ، وفيه أنذر كما فلا تقفان ؟
لقد هممت أن أرميكما بالنار ! وكانت تلك هى الأوامر ، ما بعد
الإنذار إلا النار ، قتلنا : نحن أديبان ، أرايت أديبا تقع معه إنذار ،
أو أفاد معه تخويف ، ثم إننا برحمتنا بالحياة ، لا نرى فيها إلا ماضياً
لا سيبل إلى إرجاعه ، وأمل لا وصول إليه ، ولو أنت رميتنا لمنت
علينا بميتة سهلة ، نرجو من بعدها ثواب الشهاد ، وإن الموت
يا عسكري درجات ، والوان بعضها أطيب من بعض ، وما نفلنك
سمت بدعاء الأعرابي الذى سأل الله ميتة كيتة أبى خارجة ،
لأن هذم الجفوة منك دللتنا على أنك لا تقرأ كتب الأدب .
افتح أن تعرف كيف مات أبو خارجة حتى صار موته أمينة ؟
أكل حنيذاً ، وشرب نبيذاً ، ونام فى الشمس ، فمات
شعبان دفان ريان !

قال الجندي ، ولم يفهم منا شيئاً :

— يشنو إنتو يابيه ؟

قلنا : نحن معلون !